تداولية الاستعارة من خلال "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني

د خليفة بوجادي
جامعة سطيف 2 الجزائر

ملخص :

تمثل الاستعارة تجاوزا باللغة من التعبير بما هو ممكن إلى التعبير بالمخالف؛ حيث يعدل المتكلم عن الرضوخ لسلطة العلاقات الأولية التي تربط الوحدات اللغوية إلى علاقات مدّعاة، جديدة، غير مستساغة في الواقع الأوّليّ. ولعل هذه التجاوز من أهم ما يميز اللغة التعبيرية لدى الإنسان، لذا حظيت الاستعارة بعناية الدارسين على اختلاف مشاربهم واهتماماتهم، قديما وحديثا.

وتتناول هذه الدراسة نظرات في الاستعارة التي عرضها عبد القاهر الجرجاني في "أسرار البلاغة"، وهي من أوفى ما وصلنا في تحليلها، وبيان عناصرها، وتحديد مقاصدها الإبلاغية المتعددة. وليكن هذا التناول من منظور تداولي، يستند إلى المقولات الاتصالية أساسا، وما يتعلق بكل من المتكلم، منتج الاستعارة، متوخّي التجاوز، وبالسامع الذي يتوقف عليه نجاح الاستعارة بقدرته على استقصاء مواضع التجاوز والظفر بالمقاصد المبيّتة، والنص الاستعاريّ في ذاته.

Abstract

The metaphor transcended language when the speaker Does not accept the authority of the initial relations between linguistic units to new relations, , Unacceptable in the initial fact.This is a language feature in humans, making metaphor important issue since ancient times.

This study looks at the metaphor presented by Abdul kahar el Jerjani in "Asrar elbalagha", And trying statement elements and reporting purposes. This approach will be from the pragmatic perspective, based on the arguments essentially communicative.

And Focuses on the concepts of communication, For each of the speaker, product metaphor, and receiver which plays a role in the success of the metaphor by his understanding of the purposes and objectives.

يعني المنظور التداولي للاستعارة دراستَها ضمن سياقاتها التواصلية المتعدّدة، والتعامل مع العناصر الواقعية لملفوظاتها؛ ويقتضي ذلك أن يُنظر إليها بعدّها وسيلة لغوية للاتصال، غير عادية باعتمادها مخالفة المعتاد من اللغة، وتتضح قيمتها من محصول التفاعل بين ما هو بشري وأدبي وفني، دون إغفال النظر إلى الانتقال السياقي الذي تفرضه على المتكلم والسامع؛ من سياق التلفظ إلى سياق التلقي، على تنوّع السياقات الثقافية والاجتماعية.

ويشير عبد القاهر الجرجاني إلى هذه التفاوتات السياقية، واختلاف مستويات مستخدمي الاستعارة، بقوله: " اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجرى فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى أنك تجد في الاستعارة العامي المبتذل، كقولنا: رأيت أسدا، ووردت بحرا، ولقيت بدرا، والخاص النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال". (1)

ولعل هذا المنظور تداولي يثري الدراسات الحديثة للاستعارة، لا سيما تلك التي أبعدتها عن سياقها الواقعي، نحو النظرية الاستبدالية التي عزلتها عن سياقاتها التواصلية. (2)

والاستعارة في علم البيان، مجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما (تشبيه حذف منه أحد طرفيه). وتتفق تعريفات البلاغيين العرب لها حول مبدإ عام يحكمها، وهو النقل؛ من الحقيقة إلى المجاز، أو من الأصل إلى غيره؛ فقد ذكرها الجاحظ بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه(3)، وكذلك هي عند ابن قتيبة إذ "... العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمّى بها بسبب من الآخر، أو مجاورا لها أو مشاكلا"(4)، وهي عند أبي هلال العسكري نقلُ العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره (5). فمجموع هذه التعريفات ينطلق في تعريفه للاستعارة من مبدأ أنها نقل الذي يعتري اسم الشيء، أو اللفظ او العبارة، على سبيل المجاز القائم على المشابهة أساسا.

الاستعارة في أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني؛ المفهوم والخصائص:

ورد في تعريف عبد القاهر الجرجاني للاستعارة، قوله: "أنْ يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هنا كالعارية"(6)

في هذا التعريف يعدّ الجرجاني الاستعارة نقلا للفظ من وضعه الاصطلاحي المتواضع عليه إلى وضع آخر، غير أن هذا الوضع الجديد لا يكون لازما له، بل انه وضع مؤقت تستوجبه طبيعة استعماله في الشعر. والاستعارة -بحسب هذا التعريف- فعل مقصود من الشاعر. ولعل نسبة ذلك إلى الشاعر بسبب ما تمثله الاستعارة من اختيار فني أرقى من الاختيار اليومي العادي

للأفراد، ولكنه -في الوقت نفسه- لا ينفي أن تكون الاستعارة اختيارا من غير الشعراء أيضا. وهو ما يوحي بأن الجرجاني لا يقصر الاستعارة على الخطاب الإبداعي، بل يوسع من دائرتها لتشمل الخطابات الأخرى ولو أنه لا يحدد هذه الخطابات. وفي موضع آخر من هذا التعريف، يشبه الجرجاني الاستعارة بالعارية التي تعني "أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الأشياء ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما بسبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئا" (7).

تقوم العلاقة بين الاستعارة والعارية على أساس وجود شبه في التصور بينهما، فإذا كانت العارية لا تعار إلا في إطار تقارب بين شخصين فإن هذا التقارب وارد في الاستعارة التي تقوم على وجود علاقة بين طرفيها، وهي المشابهة، لدى أغلب النقاد القدامى والبلاغيين.

أقسام الاستعارة لدى الجرجاني:

يجعلها نوعين: غير مفيدة ومفيدة (8)؛

1. الاستعارة غير المفيدة: يعرفها بقوله: "ما لا يكون لنقله فائدة"(9). ويرى الجرجاني بأن هذا النوع من الاستعارة لا يتردد بكثرة فهو "قصير الباع قليل الاتساع"(10). ويتم هذا النوع من الاستعارة بنقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر، بهدف التوسع في أوضاع اللغة ومراعاة دقائق الفروق في المعاني المدلول عليها(11)، ويمثل لها الجرجاني بقول الشاعر (12):

فبتنا جلوسا لدى مهرنا ننزع من شفتيه الصفارا

استعمل الشاعر الشفة للفرس وهي موضوعة أصلا للإنسان، ويرى الجرجاني أن هذه الاستعارة لا تضفي جديدا على المعنى "فلا فرق من جهة المعنى بين قوله: من شفتيه وبين قوله: من جحفلتيه. لو قاله إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب"(13). بل إنه يذهب إلى أن هذه الاستعارة قد تنقص جزءا من الفائدة التي على الشاعر توخّيها، ومنها هذه الاستعارة الواردة في هذا البيت.

لذلك يخرج الجرجاني الاستعارة غير المفيدة من دائرة الاستعارة مقتصرا على النوع الثاني: الاستعارة المفيدة.

2. الاستعارة المفيدة: يعرفها بقوله: "اعلم أن الاستعارة في هذا الضرب دون الأول وهي أمد ميدانا وأشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا." (14)؛ وفي هذه الإشارات، بيان لعناصر الاستعارة المفيدة، وهي سعة ميدان المعنى والإحاطة الدلالية، وإعمال الشعر فكره لإخراج أوجهها البديعة، وغناها بالمعاني، وامتدادها بالدلالات. ويصفها

بأنها: "ما يكون له فائدة"(15)؛ إذ يؤدي نقلها عن وضعها الأصلي إلى وضع آخر إلى إضافة في المعنى لم تكن لتحصل دون نقلها.

ويحصر الجرجاني هذه الفائدة في المشابهة قائلا: "وأما المفيدة فقد بَان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك وجملة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه".(16)

ويسوق لها الجرجاني المثالين الآتيين: (17)

. رأيت أسدا.

. صافحت بحرا.

في المثال الأول، تمت استعارة اسم الأسد للرجل ليفيد معنى جديدا لم يكن ليحصل لولا هذه الاستعارة، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، لكن هذه المبالغة لا تتم خارج التأثير في المتلقي الذي تقع في نفسه صورة الأسد في بطشه وإقدامه ويأسه وشدته.

أما المثال الثاني، فقد استعير فيها اسم البحر للرجل لإفادة كرمه وجوده.

وتأسيسا على تعريف الاستعارة السابق وقسميها، مما أورده عبد القاهر الجرجاني، نخلص إلى الآتي:

-الاستعارة نشاط لغوي محض.

-الاستعارة نقل للألفاظ والمعاني، أساسا.

-تتجاوز الاستعارة الاستعمال الأدبي (الشعري)، إلى ورودها في خطابات غير أدبية.

-العلاقة بين طرفي الاستعارة علاقة مشابهة.

-تتحدد قيمة الاستعارة بدرجة فائدتها.

إلى جانب هذه المبادئ الأساسية للاستعارة في تصور الجرجاني، نشير إلى فكرة بديعة التفت إليها في حديثه عن الاستعارة حين اعتبرها مسألة مشتركة بين جميع الأجيال وفي جميع اللغات، بل إنه اعتبرها مسألة تتقاسمها مختلف الأذهان ويدل على ذلك قوله: "فقولك رأيت أسدا، تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة، أمر يستوي فيه العربي والعجمي وتجده في كل جيل، وتسمعه من كل قبيل. كما أن قولنا زيد كالأسد، على التصريح بالتشبيه كذلك فلا يمكن أن يدعي أننا إذا استعملنا هذا النحو من الاستعارة فقد عمدنا إلى طريقة في المعقولات لا يعرفها غير العرب أو لم تتفق لمن سواهم."(18).

تقدم لنا هذه المقولة إشارة مهمة تتمثل في انتباه الجرجاني إلى أن الاستعارة عملية مشتركة بين جميع اللغات لأنها تعكس حضورها في البنية الذهنية للإنسان .

هذه المفاهيم السابقة هي مدخل هذه الدراسة، ولقد تناولت عددا من المبادئ الاستعارية التي يمكن ربطها بالمباحث التداولية الحديثة؛ اعتدادا بمفهوم استعمال الأصل، النقل، القصد في الاستعارة؛ وتتوزع هذه العناصر على مبحث المتكلم بعدّه من يصنع الادّعاء الاستعاري بغية الإمتاع والحجاج، ومبحث السامع بعدّه متبنّي الادّعاء في العملية الاستعارية؛ متأثرا ومنصاعا.

المتكلم؛ صناعة الادّعاء، الإمتاع والحجاج

يؤدي المتكلم دورا بارزا في البلاغة العربية، فهو منتج الخطاب وباعثه، وهو الذي يحدد الدلالات ومقاصدها، فالمعنى يرتبط به وبما ينوي إبلاغه.

وفي مجال الاستعارة تحديدا، يتباين دور المتكلمين في وضع الاستعارات واختلاف مقاصدها؛ فقد تحمل معنى معينا أحدهم لتأخذ غيره لدى الآخر؛ لان المتكلم يختار التعبير الاستعاري لغرض متوخّى سلفا أو تفرضه ظروف الخطاب. ونقف فيما يلي على أهم القيم التداولية إلى المتكلم في العبارة الاستعارية.

القيمة الادعائيّة

يقصد بها ادّعاء معنى الاسم للشيء، لا نقل الاسم من الشيء، ولا يتحقق إطلاق معنى لفظ معين على معنى لفظ آخر إلا عندما يدخل المعنى الأول في جنس المعنى الثاني ويُدّعى أنه هو نفسه. كقولهم: "رأيت أسدا"؛ فإطلاق لفظ(الأسد) على (الرجل) لا يتم إلا بعد إدخال الرجل في جنس الأسود ومن ثم تكون الاستعارة ادّعـاء، بقصد من المتكلم وإرادة منه لهذا الإدخال بين الجنسين.

وقولنا: "رأيت شمسا أو بدرا"، فليس المقصود الشمس الساطعة في كبد السماء أو البدر الظاهر في عتمة الليل، وإنما الحال هي المبالغة في وصف شخص له من الجمال والبهاء والحسن المالئ للعيون الباهر للنواظر. فندّعي أن هذا الشخص (المشبه) هو نفسه الشمس أو البدر (المشبه به). أو كما يقول الشاعر : ... وفـاحما، ومرسنـا مسرجـا؛ يعني أنفا يبرق كالسراج.

و"المرسن" في الأصل، كلمة تستخدم خارج مجال الآدمي، لأنه الموضع الذي يقع عليه الرسن، فقد تم نقل الشيء من الجنس المخصوص به إلى جنس آخر.

ولا تقتصر الاستعارة في كتاب الأسرار على أقوال الشعراء وحسب، بل وردت أيضا في مواقف أخرى، نحو المثل السائر في قول الأعرابي: "كيف الطلا وأمه" (19)؛ إذ القصد منه تشبيه الصغير حديث الولادة بالطلا ، وهو صغير الضبي، وادعاؤنا أنه هو، فالقائل لا يقصد أن الولد طلا وإنما وظف ذلك لعلاقة المشابهة بينهما.

ومن أوجه حصول الإدّعاء في الاستعارة، ان ينقل المتكلم سامعه غلى جو من العناصر المدركة بالحواسّ، المشاهدة بالبصر، حملا له على تصديق الادّعاء والخضوع إليه، نحو ما ذكره الجرجاني من قول لبيد (20):

وغداة الريح قد كشفت وقـرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامهـا

ذلك أنه جعل للشمال يدا، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه نحو إجراء الأسد في قولك: (انبرى لي أسد يزأر) وتقصد به رجلا، أو إجراء (الظباء) على النساء، أو (النور) على الهدى والبيان. بل ليس أكثر من أن تتخيل إلى نفسك –وهو محصول الشاعر في هذا المقام- أن "الشمال" في تصريف" الغداة" على حكم طبيعتها مِثل المدبّر والمصرّف الذي له زمامه بيده، فلا يتعدى كل هذا التخيل والتوهم دون أن يكون هناك شيء محسوس.

فقد أراد أن يثبت أن للشمال في الغداة تصرّفا لا يختلف عن تصرف الإنسان في الشيء يقلبه، فاستعار كلمة "اليد" حتى يتحقق الشبه ويتأكد، ادّعاءً لا مقاربة، وذلك أدعى إلى الإقناع وتبني مواقف الخطاب.

يحمل إذًا- مفهوم الاستعارة من منظور الادّعاء وسائل وافية لتحليلها بالنظر إلى التداخل بين المجالات التصويرية المتوفرة في حياة الإنسان،لأن إدماج مجال تصويري معين(الإنسان مثلا) داخل مجال تصوري مغاير (الحيوان مثلا) عن طريق الإدّعاء يفتح مجالا واسعا لتغيير النظرة إلى الاستعارة بجعلها تتجاوز ما هو لغوي لترتبط أكثر بما يمتع من طبيعة العالم الذي نعيش فيه وكيفية تفاعلنا معه، ولتصبح ضربا من ضروب الصانعة الفكرية، وشكلا من أشكال الرؤية والتخييل. ولعل مفهوم الإدّعاء هذا، عند الجرجاني، يحمل كثيرا من الإمكانات التي ينبغي أن يستثمرها المشتغلون اليوم بالاستعارة، وأن أهمّ ما يدعو إلى التعبير الاستعاري، الحاجةُ إلى الفهم والإفهام وليس السعي وراء الغلو والإغراق.

الادّعاء سبيل الإقناع، الإمتاع والحجاج

تحمل الاستعارة مضامين تداولية أخرى، أهمها أن يقصد التأثير في سامعه وإقناعه بوجهة نظر أو فكرة أو موقف ما، أو قصد إمتاعه من خلال استعمال الأساليب البيانية المختلفة. والإمتاع غرض متوخّى في الثقافة العربية، إذ يجنح المتكلم إلى الصناعة البيانية، ويطرب السامع في المقابل، بفرائد هذه الصناعة وبدائعها. وقد يلجأ المتكلم لتحقيق ذينك التأثير أو الإمتاع، إلى استخدام حجج وبراهين تدعم رأيه، فتزيده قوة، وتحمل السامع على التجاوب وتحقيق غرض الخطاب.

وقد لاحظ بعض الدارسين أنّ اللجوء إلى الأوجه البلاغية يكون لغرضي الإقناع وبيان جمال العبارة، يقول: "إن المتميّز واللافت في القياس الشعري أي في التشبيه والاستعارة أنّه يجمع بين الإقناع والجمال. إنّه يُقنع بالفكرة أو الرأي من جهة أنه قياس، وهو يُمتع ويُطرب من جهة أنّه صورة تُزيّن القول وتُوشّيه".(21)

الإقناع غرض استعاري

الإقناع رديف الاقتناع؛ مما يعني أنهما متلازمان وجودا وعدما، فلا وجود لأحدهما دون الآخر، لأن اقتناع السامع بفحوى الخطاب هو ما يجعلنا نصف عمل المتكلم بأنه إقناع. والإقناع، في الثقافة العربية، مرتبط ارتباطا وثيقا بإمتاع المخاطب، لأن الإمتاع سبيل من سبل الاقتناع وداع من دواعي النظر في فحوى الخطاب ليكون أدعى للاستمالة. ويتمثل ذلك في كل ما من شأنه أن يترك آثاره في نفس السامع ويدفعه إلى الامتثال. فالاستعارة إذاً، بقدر ما هي إقناع للعقل بقدر ما هي أيضا إمتاع للعاطفة.

ولن يخرج موضوع "المقام ومقتضى الحال" في البلاغة العربية عن هذا المفهوم العامّ؛ إذ يرتبط اختلاف الغرض المنشود للخطاب بتغير المقام؛ يقول أبو هلال العسكري في الصناعتين: "واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال، فإذا كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض ما تصلح الخطب أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد فتخط ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر فإن ذلك هجنه".(22)

ويقدّم السكاكي في موضع آخر أشكالا مختلفة للمقامات باختلاف العلاقات الاتصالية بين المتكلم والسامعين، يقول في "مفتاح العلوم": "ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المديح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكن من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر. ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسمّيه مقتضى الحال"(23).

ويؤدي المقام دورا فعالا في نجاح الخطاب الإقناعي؛ حيث يرتبط به المقال من ناحية، ويحفظ مراعاة الألفاظ للأغراض والمقاصد، كما يؤسس موضوع المقام أيضا للأسئلة التداولية: كيف نتكلم؟ لمن نتكلم؟ وكيف نُقنع الآخرين؟ وكيف نتخذ القرار؟...

وحديثا، ربط المشتغلون بقضايا الخطاب البلاغةَ بالحجاج؛ يقول "روبول" في معرض حديثه عن البلاغة: "لن نبحث عن جواهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتحديد. بعبارة أخرى ينتمي إلى البلاغة، بالنسبة إلينا، كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه هذه الوظائف الثلاث: المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة متعاضدة، كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعّمتين بالحجاج"(24).

فالبلاغة ليست غرضا منفصلا عن الحجاج، بل انهما متقاطعان ويتماسّان في عدد من المواضع. وإن كانت الأولى أقربَ إلى إنشاء المتعة والثاني إلى الإقناع وتبنّي مواقف جديدة؛ فالصورة الحجاجية -إذاً- "تنهض بوظيفيتن وظيفة الإمتاع ووظيفة الإقناع"(25).

ولقد ميّز "بيرلمان" في حديثه عن الصورة، بين الصورتين الحجاجية والتحسينية، في قوله: "نعتبر صورة التعبير حجاجية إذا استتبعت تغييرا في الأفق، فبدا استعمالها عاديا بالنسبة للمقام الجديد على خلاف ذلك لا يستتبع انخراط المستمع في الشكل الحجاجي فإن الصورة ستظهر كمحسّن، أي كصورة أسلوبية، بوسعها أن تثير الإعجاب، ولكن ذلك يظل في المستوى الجمالي."(26)

فلقد أضاف إلى البلاغة بهذا التمييز، مجالها الحجاجي التداولي، لتصبح ذات غاية حجاجية، إضافة إلى غايتها الجمالية. وبين البلاغة والحجاج تلاحم وتداخل؛ إذ لا يخلو الحجاج من البلاغة ولا تخلو البلاغة من الحجاج، ويتقاسمان الإغراء والإغواء، والإمتاع والإقناع.

ويقودنا هذا الحديث إلى عدّ كل بلاغة حجة، بما في ذلك الاستعارة؛ لا سيما المفيدة منها، وهي التي تؤدي وظيفة أساسية في البنية الشعرية.

الاستعارة الحجاجية

بناءً على ما سبق، تقوم الاستعارة الحجاجية على العناصر الأساسية في الاتصال، من مستمع ومتكلم وسياق...وربما سماها بعضهم الاستعارة التداولية، نحو ما ذكره أحد الدارسين من أنها "وسيلة لغوية تواصلية (...) وتفسيرها يترتب على عملية الترجمة من الانتقال من سياق التلقي الذي أنتجت فيه الاستعارة إلى سياق آخر وما يتعلق بذلك من اختلاف السياق الثقافي والاجتماعي"(27) فهي قائمة -إذا- على مستوى لغوي شكلي، ومستوى آخر أدبيّ فنيّ.

ويمكننا أن نفرّع الاستعارة الحجاجية من الاستعارة التداولية التي تكون بالضرورة أوسع منها امتدادا، حيث تتجاوز في مقاصدها الإقناع والتأثير المرتبطين بالحجاج، إلى ما يرتبط باستعمال اللغة واستغلال المقام ومقاصد المتكلم المختلفة؛ وهي ذات قوّة حجاجية فيما

ذكره أبو بكر العزاوي: "... إن القول الاستعاري يتمتع بقوّة حجاجية عالية إذا ما قورن بالأقوال العادية".(28)

وفي هذا الصدد، عرض عبد القاهر الجرجاني قول ابن المعتز(29):

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيا السماحا

فقد أظهر لنا الشاعر نوعا جديدا للتأثير في السامع واستمالته، وذلك باستعماله الطباق الموضوع بين (قتل)و (أحيا) وهما صفتان للدلالة على القوة وهما خارجتان عن مجال قدرة الإنسان، لأنهما من صفات لخالق عز وجل، واستُعيرتا للإنسان إبانةً وقدرته الفائقة في نصرة الحق وإحقاقه. وتكمن القيمة التأثيرية للبيت في اختيار الشاعر الاستعارتين المتواليتين؛ قتل البخل وأحيا السماح؛ حيث يجري ادّعاء القتل والحياة بغير ما بناسيهما في الواقع، مما يدفع بالسامع إلى الاقتناع بقدرة المذكور ورفعته.

كما أورد الجرجاني نماذج لهذه الاستعارات من القرآن الكريم، نحو قوله عز وجل: "وَمزَّقنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ"(30)، فكما يمزّق الثوب بشدة وغلظة وقسوة ليصل إلى حال نهائية لا رجعة فيها، مُزقت هذه الأمم وشُتتت وبُعثر أفرادها لسوء ما عملت. ولم يكن معنى التشتيت هذا ليحصل، بغير هذه الاستعارة البديعة؛ فتأتي على تحقيق الغرض الحجاجي، وهو التغيير في موقف السامع الذي سرعان ما يقف فكره أمام هذه الصورة، مما يكون أدعى إلى خوف النفس وخشوع القلب، خلافا للتعبير العادي لمحصول الآية (وأبعدناهم عن بعضهم بعضا)، والذي لا يمكنه أن يحقق في نفس السامع ما حققه التعبير الأول.

وليس بعيدا عن هذا الغرض قوله تعالى، فيما أورده عبد القاهر أيضا: (وقطعناهم في الأرض أمما)(31)، فـــ " قطعناهم في الأرض" غير (نشرناهم في الأرض) لأن في الأولى من الشدّة، والقوّة، والقدرة، وحسم الأمر والجزم بحصوله، ما ليس في الثانية التي تُبقي في دلالتها على بعض الصلة والروابط بين هذه الأمم وإن تباعدت، لكن التمزيق لا يُبقي على أيّ من ذلك. وهنا يكون لهذه الاستعارة - التي نقلت التمزيق من حقل الماديات مألوفة التمزيق من لحم وخضر وغيرها، إلى حقل جديد - قوةٌ لتغيير موقف السامع واستمالته.

وينبغي الإشارة في هذا المقام، إلى أن العبارات الاستعارية مألوفة في اللغة البشرية، لكنها تختلف باختلاف الأزمنة والأماكن واللغات والثقافات، ويحضرني في هذا المقا قول صابر الحباشة: "إذا شاع في السياق البلاغي العربي تشبيه الشجاع بالأسد وجمال العيون بعيون المها، والقد بالبان، واللمعان بالدينار، والسواد بالليل...فهذه القيم الجمالية التي يعبر عنها على هذه الشاكلة في اللسان العربي تجد لها تعبيرات مختلفة في سائر الألسنة، وهذه

التعبيرات كل في لسانه هي رصيد مشترك -ضمنيا- بين متكلمي ذلك اللسان، يضمن تواصله واستمراره وجود المدونة الأدبية التي تحمل اللغة الصافية المعيارية التي تجسد تلك النماذج الكلية التي يستعيدها الشعراء وكتاب النثر الفني أو يطورونها، وتتحول تلك المستنسخات الشكلية تبعا للذوق الأدبي العام ولكيفية تلقي مستعملي تلك اللغة لها وبدرجة استيعابهم إياها".(32)

السامع؛ تبنّي الادّعاء، التأثّر والانصياع

تختلف مستويات الخطاب والأساليب المستخدمة من المتكلمين؛ من الكلام العادي الذي يتعاملون به في شؤون حياتهم اليومية في البيت والمدرسة والوظيفة... إلى الأسلوب العلمي القائم على عرض الأفكار، إلى الأسلوب الأدبي الذي يتوخى جمال العبارة ولطف المعاني والذهاب بالسامع كلّ مذهب من أفانين القول وأشكال التعبير. ولهذا، حظي السامع في الدرس البلاغي العربي بأهمية لا تقل عن أهمية المتكلم؛ ولئن كان المتكلم هو منشئ الخطاب ومنتجه، ويسمه بكثير مما يميزه متكلما عن الآخرين، فإن السامع هو من يُنشأ له الخطاب ومن أجله، وهو مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة، وإن لم تكن مباشرة، فالمتكلم حين يراعي مقام الخطاب، وأحوال السامع، وأشكال إلقاء الخبر إليه، وأنماط الطلب التي ينشئها... وما إلى ذلك من ظروف الحديث المختلفة، فهو إنما يستحضر السامع في كل عملية إبلاغية، ولو بصورة ذهنية، إن لم يكن حاضرا عيانا.(33)

والخطاب ينبئ بطبيعة السامع وهو يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده هذا الأخير لا المتكلم. وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة التي تتقاطع فيها مع البلاغة العربية، حيث إن من أهم مجالاتها الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب.

وفيما يلي عرض لعدد من الاستعارات التي أوردها الجرجاني، مما يوضح كيفية استقبال السامع للصورة الاستعارية ومدى تبنّيه للادّعاءات المرسَلة في مضامينها، إلى جانب بيان مهارة المتكلم وبراعته التواصلية.

تبنّي الادّعاء

مما يميّز الخطاب الاستعاريّ أنّه كلما كان متعاليا عن الحقائق إلى المجاز، نزّاعا إلى المبالغة من التوسّط، كان أقرب إلى المحاجّة، غنيا بأدوات الإقناع وأسهم الإفحام. فكون "الوليد" إنسانا وملاكا في الآن نفسه مخالف لواقع الأشياء؛ مما يدفع بالمتكلم منتج الاستعارة إلى التوسّل بأدوات فنية وبلاغية ليجعل -على سبيل المبالغة- الوليد الإنسان

ملاكا في لحظة ما. فليست الاستعارة، إذاً، سوى عدول بالكلمات من دلالاتها الصريحة إلى دلالات سياقية.

ومن شواهد ذلك، ما أورده الجرجاني في "الأسرار" من قول الشاعر(34):

وضَيفٌ جـــاءنا والليــلُ داجٍ وريحُ القَـرِّ تحفـــز منه روحا

فطرتُ بمُنصلِي في يَعمُلاتٍ ووامى الأيد يخبطـن السَّريحا

(المنصل: السيف، اليعملات: النوق، السريح: كل قطعة من خرقة ممزقة أو دم سائل).

فقد استُعير فعل "الطيران" لغير محله الذي وُضع له في الأصل؛ حيث يقول الشاعر في معنى البيتين أن ضيفا جاءهم بالليل في شتاء بارد، يكاد يقضي لشدة ضعفه ومن شدة القرّ، فيسرع الشاعر بسيفه إلى نوق يعقرها، ليقريه ويخفف من برده وضعفه، فسال منها دم كثير بعد ذبحها.

ومحصول عبارة الاستعارة "فطرت" ادّعاءُ حركة سريعة ليست في وسع الإنسان في التعبير العادي، ولكنها وردت في سياق يجعلها أقرب إلى التصديق والاقتناع من السامع، فيكون أدعى إلى قبوله بالمعنى المراد والإلمام بالدلالة المقصودة.

ومن ذلك ما أورده من استعارة البحتري(35):

...كالفجر فاض علـى نجوم الغيهـب

فقد استخدم كلمة (فاض) التي هي موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص، للدلالة على انبساط الفجر، وتلك حال شبيهة بانبساط الماء وحركته في فيضه؛ وهنا يكون السامع أمام صورة بديعة يشهد من خلالها فيض الفجر على الموجودات، فيتبنى الادّعاء الآسر ويذعن دون اعتراض.

ومنه أيضا قول المتنبي(36):

نَثَرتَهُمُ فوق الأحَيدَبِ نثرةً كما نُثِرَت فوق العروس الدراهمُ

فـــ"النثر" لا يكون إلا للأجسام الصغيرة، نحو الدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها مما يصلح أن يُلتقط، لأن لها هيئة مخصوصة في التفرق لا تأتي في الأجسام الكبار. لكن المتنبي استخدمها لعساكر الروم الذين هُزموا أمام سيف الدولة وفرقهم قتلى وأسرى فوق الجبل ونثرهم نثرا ، بدَوا من خلاله أجساما صغيرة يسهل التقاطها كما يلتقط الحبّ إمعانا في احتقارهم واستصغار شأنهم.

وإضافة إلى ما حققته هذه الاستعارة الحجاجية في البيت، فإنها تضمن المكوث لوقت أطول في ذهن السامع بتفاصيلها ومشاهدها، مما يفحم ردوده ويهوّن اعتراضه، ويدفعه إلى الانصياع التلقائي المبيّت من المتكلم.

التـــأثـــر والانصياع

لئن كان التأثر والاقتناع وجهين لاقتناع السامع بفحوى اللاستعارة، فإن بينهما فرقا لطيفا؛ فالاقتناع نتاج النظر العقلي وتدبر المعطيات المقدّمة والنتائج المحصّلة، والتأثر نتاج الانسياق العاطفي خلف مجريات الاستعارة ومحمولاتها العاطفية.

وكلاهما يبعث على انصياع السامع للخطاب الاستعاري، وهما متلازمان من وجهة واحدة؛ إذ أن التأثر سبيل الاقتناع، وليس ضروريا أن يحصل العكس.

ولقد أورد "الجرجاني" في الاسرار كثيرا من الشواهد المتعدّدة والمتنوعة القائمة على مبدإ حصول تأثر السامع بالاستعارة، من الخطاب القرآني، الأحاديث الشريفة، وأقوال الشعراء.

فمن القرآن، قوله تعالى: "وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ"(37)؛ وقد سبق بيان أن التمزيق للثوب في أصل اللغة، إلا أن ذلك راجع إلى الحقيقة، من حيث إنه تفريق على كل حال، إلا أنهم خصوا ما كان مثل الثوب بالتمزيق، كما خصوه بالخرق. ومثله أن "القطع" إذا أطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التي تلتصق أجزاؤها. وإذا جاء في تفريق الجماعة وابعاد بعضهم عن بعض، كقوله تعالى: "وَقَطَّعْنَاهُم فِي الأَرْضِ أُمَمًا"(38)، فمن يمعن النظر في آيات القرآن الكريم ويتدبر معاني التقطيع والتفريق في الأرض، أمماً متباعدة مقطّعة الأواصر معانيها ودلالاتها، ينتقل من حال إدراك فحوى الاستعارة إلى حال الخشوع والخوف من عقاب الله تعالى؛ فيحصل التأثر المتوخى من سَوق الاستعارة في نفس السامع أو القارئ. ومثل هذا الخطاب، إضافة إلى أنه من كلام الله تعالى المعجز، يكون أقرب إلى العقول والقلوب، وهو أقدر على التأثير في جميع السامعين مهما اختلفت مستويات التلقي عندهم. وهو خطاب إقناعي موجّه بامتياز، للتأثير في مواقف السامعين وسلوكاتهم.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة، أوردَ قول النبي صلى الله عليه وسلم: "...أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم"، تأكيدا لقوله تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إِن هُوَ إِلَّا وَحيٌ يُوحَى"(39) بيانا لفصاحة النبي صلى الله عليه وسلم وبلاغته بين العرب.

ونشير في هذا المقام إلى أن القرآن الكريم والحديث الشريف ومأثور كلام العرب، صار من وسائل إقناع المخاطب واستمالته؛ حيث يوردها المتكلم حينما يكون في مقام المقنع، ويذكرها بعدّها نصوصا داعمة تعضد قوله وتقوي حجته، لأنه يعلم أن السامع، إن ردّ كلامه، فلن يردّ هذه النصوص الداعمة كونها من النصوص المشتركة بينه وبين المتكلم الذي يتفق معه في الثقافة والمعتقد. ولن يجد السامع نفسه أمام هذه الوسائل إلا متأثرا بها، وضمن ذلك، منصاعًا لحُمولة الخطاب متجاوباً معها، وكأن ذلك مثبت في ذهنه من قبل.

ومن الأحاديث أيضا، أورد الجرجاني قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إيَّاكُم وَخَضرَاءَ الدِّمَن"(40) الذي يخبر من خلاله عن المرأة الحسناء في منبت السوء، دلالةً على حسن الظاهر مع فساد الباطن.

وخلال هذه الاستعارة، يكون السامع أمام واقعة طبيعية يعرفها ويدرك تفاصيلها ودقائقها، ومن هذه الناحية لا سبيل إلى ردّها أو الطعن في صدقيّتها وقيمتها الحجاجية، وذلك أدعى إلى انصياعه واستجابته، لا سيما وأنّ هذه الاستعارة بالذات، تمثّل قانونا اجتماعيا غير قابل للرّدّ أو التكذيب.

وتختلف آثار وقع هذه النصوص على السامع وأشكال انصياعه باختلاف ما تحمله الاستعارات من إحالات؛ فأثر توظيف القصة مثلا، غير الأثر الذي رأيناه فيما سبق؛ لا سيما إن تخللتها مواطن العبرة للاعتبار من حياة الماضين ، فيكون حبّ الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، يقول الجرجاني:" ألا ترى إلى حديث الجُمَحِي؟ حُكِيَ عن بعضهم أنه قال: أتيت الجمحي أستشيره في امرأة أردت التزوج بها فقال: أقصيرة هي أم غير قصيرة؟ قال: فلم أفهم ذلك. فقال لي: كأنك لم تفهم ما قلت، إني لأعرف في عين الرجل إذا عرف، وأعرف فيها إذا أنكر، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر، أما إذا عرف، فإنها تخاوَصُ، وذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تَسجُو، وإذا أنكر فإنها تجحظ. أردت بقولي((قصيرة))؛ أي هي قصيرة النسب تُعرَفُ بأبيها أو جدّها"(41).

يحقّقه أسلوب القصّ أن يضمنَ تعلقَ القارئ بها ومتابعتها والتطلع إلى نهايتها. ومحصول كل ذلك، التأثر بها وإدراك مقاصدها، فيحصل اقتناعه بوجهة نظر المتكلم، وموافقته الرأي، وانصياعه لحمولة خطابه.

ومردّ كل ذلك إلى براعة المتكلم في اختيار الشواهد ودمجها مع مقصده بدقة متناهية، ووقد يوظف أساليب مختلفة تجذب السامع دون أن ينتبه إلى مواضع انحراف الأسلوب، نحو استخدامه أسلوب الاستفهام في قوله:"ألا ترى إلى حديث الجمحي؟"؛ فالسامع لا يحس بانقطاع الحديث عند إيراد الشاهد، بل انّ هذا الاستفهام متسلسل مع حديث المتكلم بطريقة سلسة، تضمن إصغاء السامع واهتمامه.

وخلاصة هذا البحث، أنّه على الرغم من أن في الاستعارة الحجاجية جانبا غير يسير يتعلق بالسامع ودرجة تبنّيه للادّعاء المسُوق وحجم تأثّره ومدى انصياعه، فإن مدار كل ذلك راجع إلى المتكلم منتج الاستعارة الذي ينبغي أن يكون ملمّا بأحوال مخاطبيه، وبارعا في استعمال أساليب ومهارات تجعله يقنع متلقي الخطاب ويغيّر من مواقفه. وإن كان لا يملك أن يجبره على اعتقاد ما يريده فيلزمه بذلك إلزاما، فهو يملك أدوات التأثير فيهم لتحريكهم نحو الهدف المنشود باقتناع ورغبة، وهذا يتطلب عملية اتصال جيدة بالآخرين مع قدر من الاحترام والتقدير لهم، مهما اختلفت درجاتهم ومنازلهم.

هوامش الدراسة:

1 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، اعتنى به محمد فاضلي، ط1، أبحاث للنشر والترجمة والتوزيع، 2007، ص 43.

2 عيد بلبع: الرؤية التداولية للاستعارة، (مقال)، ، مجلة علامات، العدد 23، 2005، المغرب، ص1.
3 الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر،ط7، 1998، جـ1، ص152-153
4 ابن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، 2007، ص102.
5 أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، الهيئة المصرية للكتاب، 1995، ص 268.
6 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 31.
7 المرجع نفسه، ص 31 وما يليها.
8 المرجع نفسه، ص 31 وما يليها.
9 المرجع نفسه، ص31.
10 المرجع نفسه، ص31.
11 يُنظر: المرجع نفسه، ص31 .
12 المرجع نفسه، ص32.
13 المرجع نفسه، ص 32
14 المرجع نفسه، ص 31
15 المرجع نفسه، ص31.
16 المرجع نفسه، ص 33
17 المرجع نفسه، ص 33.
18 المرجع نفسه، ص 33
19 المرجع نفسه، ص 31.
20 المرجع نفسه، ص41.
21 سامية الدريدي الحسيني: دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2009، ص 95.
22 أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص135.
23 أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ص168.
24 Olivier Reboul : la rhétorique que sais-je , Presses universitaires de France, 1984 .
25 سامية الدريدي: دراسات في الحجاج، ص104
26 Chaïm Perelman : L'empire rhétorique, Rhétorique et argumentation Vrin, 1997, P123 .
27 عيد بلبع: الرؤية التداولية للاستعارة، (مقال)، مجلة علامات، العدد23، 2005، ص99.
28 أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، الأحمدية للنشر، المغرب، ط1، 2007، ص 46.
29 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 46.
30 سورة سبأ، الآية 19.
31 سورة الأعراف، الآية 168.
32 صابر حباشة: البلاغة والتداولية، (مقال)، منتديات مغرس الأدبية، 2010.
33 خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية، محاولة تأصيلية في التراث العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص175-176.
34 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص47.
35 المرجع نفسه، ص48.

36 المرجع نفسه، ص49
37 سورة سبأ، الآية 19.
38 سورة الأعراف، الآية 168.
39 سورة النجم، الآيتان 3 و4.
40 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص45.
41 المرجع نفسه، ص 45.

المصادر والمراجع: المراجع بالعربية:

1- ابن قتيبة الدينوري: تأويل مشكل القرآن، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، 2007.
2- بوجادي خليفة: في اللسانيات التداولية، محاولة تأصيلية في التراث العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
3- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر،ط7، 1998 .
4- الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، اعتنى به محمد فاضلي، ط1، أبحاث للنشر والترجمة والتوزيع، 2007.
5- الحسيني سامية الدريدي: دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2009.
6- السكاكي أبو يعقوب: مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان.
7- الصاوي احمد عبد السيد: مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين دراسة تاريخية فنية، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1988.
8- العزاوي أبو بكر: الخطاب والحجاج، الأحمدية للنشر، المغرب، ط1، 2007.
9- العسكري أبو هلال : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، الهيئة المصرية للكتاب، 1995.
10- هاشم زينب يوسف عبد الله: الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1994.

المراجع بالفرنسية:

1. Olivier Reboul : la rhétorique que sais-je , Presses universitaires de France, 1984.
2. Chaïm Perelman : L'empire rhétorique, Rhétorique et argumentation Vrin, 1997.

المجلات والمنتديات:

1. عالم الفكر: مجلة دورية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، "الحجاج" المجلد 40، أكتوبر-ديسمبر، 2011.
2. مجلة علامات، العدد23، 2005.
3. منتديات مغرس الأدبية، 2010.